رجال الدين في ذلك الوقت ودوت الصيحة في كل مكان فاستلب رينان من كرسيه في كوليج دي فرانس بتهمة الالحاد والكفر . أفكان حقاً أن رينان قد مرق من الدين مروقاً وهو قد نشأ في البروتستنتية الفسيحة على يدي أمه البريطانية التي كانت تحاول أن يكون هو — في يوم ما — قديساً؟ ومهما يكن في الأمر من شيء فلقد حنق الأساقفة ورؤساء الدين على هذا الزنديق الخائن غير ان زمراً من صغار القسيسين الذين انكبوا على الكتاب يطالعونه في دقة وعناية تنفث فيهم من روح الكاتب العظيم ميلاً نحو رينان فكتبوا اليه رسائل فيها الثناء والاطراء ، يشجعونه ان يمضي على سنه ... ثم ... انتشرت آراؤه ...

ونشبت أبحاث رينان طرائق قدداً غير انها ما زالت تتصل بسبب بالأساة الروحية التي نزعته من العقيدة الكاثوليكية ، وبمذهب الدهريين الذي صبا اليه بما يكتب عن تاريخ الاسرائيليين والمسيحيين ، وبفصول ينشرها على الناس بين الحين والحين ليجنبهم اليه ، وبالمآسي والمذكرات الفلسفية التي يطلع بها على العالم بين الفينة والفينة

ثم ... ثم جاءت جيدته هنريتا تنشر على أعيننا صورة الرجل الفذ دونها كل صورة حين ضمت أشتاتاً من كتاباته وراحت تقدها وتستخلص منها حياة جدها بما لها من نظرة ثاقبة تتلفت بها الى مشاعر الرجل وعواطفه . فهي بذلك قد أبدت للناس أشياء جهلوها ومحت أشياء ما هي من الحقيقة في شيء أشيعت حول الرجل لأغراض أرادها جماعة من أعدائه الذين حفظوا له في قلوبهم ضغناً من الضغينة والحقد ، ثم هي قالت ان العقيدة الدينية في الرجل ظلت تتنزى بين الحين والحين في قلبه رغم ما ثار حواليه من وشايات وافتراءات بشها زعماء الدين مدوية لأن هذه الجار لم يشأ ان يميل به الى حيث يسلم بمعتقدات الكنيسة ، ولأنه استل من بين جنبيه مبدأ فلسفياً لم ينزع عنه طول أيام حياته . على ان رينان — في فلسفته — أبى ان يقيم حداً بين الماديات والالهيات بل قدس الطبيعة في مظاهرها جميعاً ، وبدا الانسان في عينيه مخلوقاً لم يركب قط من عنصرين منفصلين هما المادة (الجسم) والروح انما هو وحدة اتحدت فيها الروح والجسم في وقت ما فلا يستطيع واحد منهما ان يستغني عن الآخر

لم ينس رينان قلبه في حين كانت الأفكار الفلسفية الصعبة تضطرب في عقله ولكنه كان مثلاً عالياً من أمثلة الهوى والحب والوفاء والاخلاص ، تشهد بذلك قصة زواجه وحياته الزوجية ، وهو كان يرى في اتحاد الجنسين (الذكر والانثى) روحانية لا يسمو عليها اتحاد روحين ، ولهذا كره الرهبانية التي عكف عليها رجال الدين وسخر بها في أسلوب لذاع فاس

وكان في رينان العناد ، فهو يدفع عن آرائه في غير وهن ولا ضعف ، وفيه من قوة الأخلاق والشجاعة والصرامة ما بدا واضحاً جليًّا حين توزعته آلام المرض الطويل وهو على فراشه لم يتضعضع ولم يذل ، وحين أخذته سكرة الموت وهو ينظر في هدوء ورضا ، وزوجه الوفية الى جانبه ما تستطيع شيئاً لأنه طلب اليها ان تذره الى الطبيعة . . . الى أمه الرءوم . . . وهي تسترد منه وديعتها في عنف وشدة . . . ثم فاه بالكلمة الأخيرة وهو يحدث زوجه : خبريهم اني استسلم دائماً للقانون ، ثم أسلمته الحياة الناتجة الى الهدوء ... الى غاية كل حي

— ٢ —

في ندى مدام دو دوفان

مدام دو دوفان فتاة جذابة آسرة فيها روعة الجمال وطلاوة الحديث ولطف الشمائل ، وهي نبيلة المربى والمنشأ ، شبت بين السطوة والسلطان والجاه والمال في وقت معاً ، وبدت في المجتمعات — أول ما بدت — سنة ١٧١٨ عروساً للوصي على عرش فرانسا ، وما لبثت الا قليلاً ثم ساورها الملل والسأم حين لمست تفاوت ما بينها وبين زوجها فهي فتاة في ريّق الصبا وغض الشباب واكتمال الانوثة تنزى عاطفة وأملاً ، وهو رجل قد حطته الأيام وعث المشيب فاندفعت تعيش عيشة السرف واللذة واللهو شأن زميلاتها في ذلك الحين . ورمت بها حياة العبث في مطارحها لا تهدأ ولا تستقر حتى وجدت بغيتها في عيتولت ، في قاضي القضاة فألقت بنفسها بين أحضانه وتوثقت بينهما صلات . . . وعند الثالثة

والثلاثين من سني حياتها رحبت تستقبل في دارها رجالاً من أفذاذ السياسيين وجهابذة الأدباء وجدت في أحاديثهم لذة والسرور فابتدأ مجلسها الادبي وهو أول مجالس من نوعه . . . ثم هي تدعوهم — بين الفينة والفينة — الى غداء حوى من ألوان الطعام وفنون الشراب ما تطيب له النفس وتقرّ به العين ، وهي تهمة ما تبرح المائدة إلاّ وهي لا تجد في معدتها متنفساً ، ولعل إسرافها في الشراب والأكل كان بعض ما أسدل على عينيها ستراً كثيفاً فقدت بصرها عند الخمسين

ولقد كان في عقلها من النشاط والقوة بقدر ما كان في معدتها من تهم وشراهة فهي رفيقة فولتاي ومونتسكيو وفولتير . . . و . . . وأربعين من عباقرة الجيل ، وهي بينهم واسطة العقد والزهرة الفذة في هذه الطاقة اليانعة . وظلّ هذا الندي يسمو حتى ندي مدام جوفرين وهو قد ضم بين أضلاعه كتّاب دائرة المعارف وفئة من البيسيين . . . ورسط هذا الجدال الفلسفي العنيف الذي كان يضطرم تحت سقف دار مدام دوفان فقدت هي عقيدتها الدينية ، غير أنها لم تكن تأذن لأحد أن يثلب الدين ، على حين كانوا يقدحون في حق الحكومة نقداً وتجريحاً ، واطمأنت هي الى هذه الحياة هوناً ما ، فعاشت في عقلها دون قلبها ، غير أنها لم تجد السعادة والمرأة لا تجد السعادة إلاّ أن تجد لذة قلبها — فكانت رسائلها تشف عن حزن عميق دفين بين ثنايا قلبها رغم ما فيها من نكتة ظريفة أو فكرة طريفة . . . وعاودها السأم مرة أخرى ، فأي هدف في الحياة ترمي اليه ، وأي أمل تهفو نحوه ؟ وبدت الحياة جرداء قاحلة حين ابتدأ الجمع ينفض عنها الى مجالس أخر ، وحين رأت ندي مدام جوفرين يرقى روبداً روبداً فيسمو على نديها ، ولكنها تماسكت حين زعزعها الدهر . . . وأعانها السنى فبرهنت على بعض ما فيها من ذكاء وحزم وعزم ، واخترعت نوعاً من الآلة الكاتبة تسطر بها خطاباتها إلى أصدقائها وصديقاتها والملل ما يزال يتسلل الى قلبها فما انساغ عنها إلاّ وقد ولى شطر عمرها الحلو ، فأشرق النور على قلبها ولكنهُ لم يقو على أن يزيح عنهُ دياجير الظلام المتراكمة

ولشد ما آلم مدام دو دوفان أن ترى ابنة أخيها جوليا تهجرها لتؤسس لها نديًّا أدبيًّا في الطبق العلوي ! إن جوليا شابة في ريعان الشباب وهي طفلة غضة

بنية فتاة تستهوي القلوب بجمالها ودلالها وتأسر الأفئدة برقتها وحلاوتها ، فكيف لهذه العجوز التي تخطو نحو الغاية في خطىً فساح أن تنازعها الأمر ؟ وجوليا هي منها بمثابة الابنة لأنها لشأنها وسهرت عليها عمراً من عمرها أفتستطيع أن تغلظ عليها أو أن تقسو أو أن تحذرها منية أمرها ؟ وأخذ الغيظ والكمد يتسعران في قلب العجوز وهي ترى ابنة أخيها تستميل الناس اليها فتستلبهم منها رويداً رويداً لتخلف لدى العجوز فقراً الاَّ من بقية لا غناء فيها ولا سلوة . وبدت جوليا فتاة حديثة عابثة مستهترة لا يردعها دين ولا يردعها ضمير فربطت بينها وبين ثلاث من اصحابها في وقت معاً برباط ليس هو من الشرف ولا من الطهر ... ووجدت مدام دو دوفان فترة فاندفعت منها والغيرة توشك أن تعصف بعقلها ... اندفعت تسخط على الفتاة بكلمات قارسة لذاعة ثم قذفت بها الى خارج الدار

على أن مدام دو دوفان ظلت عمرها الطويل تحمل بين جنبيها قلباً فتيًّا لم يتسرب اليه برد المشيب ولا يأس العمر فهو يغتنم الفرصة ليخوض في بحر الهوى كأنما هو في سني الشباب الأولى ...

وعرفت السيدة وهي عند الثامنة والثلثين بفتى انكليزي كاتب هو هوراس والبول ... عرفته حين ابتدأ يتردد على باريس في الفترة بعد الفترة فراعها أن ترى فيه البغرية والظرف والرقة و ... أشياء أيقظت في قلبها خواطر دفنتها منذ زمان وأحست كأن شيئاً يدفعها إليه ففاض في فؤادها سيل من الحنان الأموي والهوى الجامح في وقتٍ معاً ، ولبثت هذه الآصرة بين العجوز والفتى عشرين سنة ، واختلفت بينهما الرسائل ، فرسائلها تحمل إليه عاطفة جياشة ثائرة في كلام عذب جميل هو بعض نزوات قلبها ورسائله تحوي عطفاً عليها وحناناً ثم يعتب عليها في غير إسراف أو ينطوي عنها في فتور أو يؤنبها في قسوة وملال . وأنى لعجوز عياء أن تجذب اليها قلب هذا الشاب ليكون لها وتكون هي . . . . ؟ ولعلها أرادت أن تجد فيه أنيساً في وحدتها وخلوتها لا تجد في هذا العالم من يخفف عنها بعض آلام الحياة ومصائبها ... ثم ... ثم ماتت وعلى فراشها خطاب الى الرجل الذي أحبت ...

كامل محمود حبيب

« فجر القبرة »

« كثيرون يعرفون القبرة بشكلها الرمادي الاغبر وصوتها الرفيع الرنان. ولكن القبرة من الطيور القريبة في حياتها وتأملها للحياة. وروحانية تبلغ أسمى ما يبلغه الروح ومادية تنحط الى أسفل سافلين. ففي حالتها الاولى تراها تغزو اعماق الجو عند منبلج الفجر تردد الغناء سكرى بالجمال حتى اذا بزغت الشمس فرغت الى الارض تفتش عن غدائها غافلة عن غنائها. ومثل هذا المشهد قد يصور أحسن تصوير حالة الذين يرقون الى شمس الحكمة بأرواحهم، ثم لا يقدرون على مقابلتها فيهبطون، لئلا الارض تذهلهم عن السماء ولا السماء تفصلهم عن الارض. ولا شوقهم يخنق، ولا ارواحهم يسكنة. هؤلاء هم كهنة القبرة » خليل

أسمعها : أسمعها بعيدة عني ، دانية مني .
أسمعها يشق غناؤها الفضاء الذي تفتح جفناه
أسمعها يغسل شعاع قلبها مع شعاع الفجر

قد انجلت — يا قبرتي — غياهب الليل، بعدما ظننتِ أن هذا الليل سرمد لا يزول وانزاحت عن الأفق كتائب الظلمة، وقد خلتِ ان هذه الألوان الربداء لا تحول. وسطعت لكِ المروج بعد ما حسبت انها توارت عن عينيكِ الى الأبد !

أراكِ تمعنين في التحليق ، حتى لأرى أنامل الفجر تجذبك اليها :
فاذا تركتِ في الجو بالأمس ؟
أشيئاً تفقدينهُ كل مطلع فجر ؟
أم أغنية تحملينها الى الفجر ؟
أم أمانة تتسلمينها من الفجر ؟

أرى جناحيك يرفّان ويخفقان ،
يرتّدان طوراً وطوراً يلتهبان .
وصوتك المرن يصعد في السماء
تسمعهُ الارض فتهتز قليلاً ، ثم تتوارى كأن لم يكن شاد ولا غناء .

هي سكرة قدسية — يا قيثاري — ترفك الأوج السامق
ترفك على جناحي الشوق ، وتتطفك بلفة الثناء
فما أسمى هذه السكرة التي لا يخللها صحو !
وما أبدع هذا الشوق الذي لا يطفئه وصال .

أنت من فجرك — أيتها القيثارة — في صعود دائم
أنت من شوقك في وصال قائم
تمجدين الشمس في الغفوة التي تتعانق فيها أشعة الفجر وخيوط الليل .
وترفعين اليها صلاتك وغناءك قبل أن تطل عليك .
حتى اذا لمعت في الافق ووقعت عيناك على نورها الخاطف ،
فررت الى أطباق الارض عشواء العينين واجفة الفؤاد .

ألا تمهلين قليلاً حتى تراك الشمس وانت في الاطباق العالية تغنين لها !
ألا تمهلين حتى تتمتع عيناك بالكوكب الساطع
ويرتاح قلبك لمن خفق للقائه شوقاً وحنيناً .

عينك لم تستطع ان تحمل شعاع شمس « المعرفة »
وفؤادك ناء باقراغ شوقه للحبيب !
وفي اللحظة الاخيرة تراخى جناحاك ، وعشيت عيناك .
وتدحرجت على الارض بعد ان رقيت سارج السماء .

ألم تتذوقي لذة الشروق ؟
ألم تطعمي طعام ذلك العالم العلوي ؟
ألم يكشف لك عن خزائن ذلك الوجود
الشوق والغناء والويل والعناء . . . كلها تذوب تحت لوائك أيتها الشمس !

ما وصلك الذي تغنين به ؟
ما شوقك الذي أمم الفضاء

ما شكوكك التي لا صحوة فيه ؟
اذا كان نور « الحقيقة » لا تحملهُ عيناكِ .

أتخافين احتراقاً في الاجواء
الها بين التطلع الى شمس المعرفة !
أم تسلين كل يوم الى المعرفة وتفنين على بابها، فاذا أطلت تواريتِ من وجهها المهيب ، وآثرتِ ان تحطي صامتة .
كأنك كلما صعدتِ مرة ذهب جزء من روحك وراءها في الفضاء وهكذا حتى تتوزع اجزاؤك كلها وتبلغي المرحلة الاخيرة .

وددتُ — يا فيرتي — ان أراكِ تزيدين اصعاداً في التحليق !
وددتُ ان أراكِ صاعدة حتى لا يبقى على الارض منكِ شيء
وتمنيت ان تزيدك لا تفتأ تتردد في الجو مبتعدة عني حتى تصيري تريبة صامتة.

أهلاً بك أيتها العائدة من عالم المعرفة ! منتصرة او منكسرة
ففي عينيكِ ذبول الشوق
وفي قلبكِ لهيبه
وفي جناحيكِ وجيبه

لم تذوقي — بعدُ — تلك الكرة العميقة التي لا يعقبها صحواً !
ولم يضرم قلبك ذلك الشوق الذي لا يُسلمك الا الى شوق.
لم تحبي شمس المعرفة محبة كلية شاملة ولم تؤثري الفناء فيها .
أتخافين احتراقاً في هذه الشمس !
ادني واقتربي ! أيتها الفيرة من الشمس
وتابعي أغنيتك حتى تحترقي ،وتردك الشمس الى الشمس،
يا فراشة الطيور المحترقة بدون لهيب

« دير الزور » « خليل هنداوي »